اما فيما يختص بالرسم والتصوير فالصينيون يجهلون تصوير الخيال والضوء والظلمة والظاهر انهم لا يعرفون مبادئ الاظلال اذ ان تصاويرهم تحط في قدرهم . وغالب هذه التصاوير لا يظهر بها سوى اليدين والوجه وما بقي من الجسد يستتر بغاية الاعتناء لتحريم التعري عندهم ويروى انهُ من خمسين سنة دخل احد منهم سفينة فرنسويَّة على متنها تمثال مريتون ابن نبتون معبود البحر وهو معرّى فعارض البوليس الصيني دخول السفينة ولكن الربان غطى التمثال في الحال حبًّا بالسلام ومنعًا للخصام

هذا طرف مما وصلت اليهِ بلاد الصين قبل التاريخ المسيحي وبعضهُ اقتطفتهُ من اشهر الكتب والرسائل الموضوعة في هذا المبحث

اصل هنود اميركا

لم يختلف الكتَّاب في اصل شعب من الشعوب كما اختلفوا في اصل هنود اميركا . وقد كثرت علينا مسائل السائلين عن اصلهم وكنَّا نؤجلها من وقت الى آخر او نجيب عنها جوابًا متقضبًا على امل ان نتشئ مقالةً ضافيةً في هذا الموضوع نضمّنها زبدة ما قالهُ الباحثون فيهِ . الاَّ اننا وقفنا في هذه الاثناء على مقالة وافية بالغرض لاحد العلماء الاميركيين الذين يوثق بهم فاقتطفنا منها ما يأتي

لما اكتشف الاوربيون اميركا وجدوها مأهولة بشعوب مختلفة تعتقد انها وُجِدَت فيها منذ الازل ولا تعرف لها وطنًا غيرها . ومناد الاخبار التي بلغت اوربا حينئذٍ عن هؤلاء الشعوب انهم متوحشون يعيشون على الجذور والبقول وما يصطادونهُ من الوحوش وهم في حروب متواصلة بعضهم مع بعض . وحقيقة الامر انهم كانوا ارقى من كل الشعوب المتوحشة وبعضهم كان سائرًا في الطريق الموصل الى العمران . فكانوا يعرفون الغزل والحياكة والصباغة ويحوكون الانسجة من الياف النبات وصوف المواشي وريش الطيور . ويستخرجون النحاس ويطرقونهُ ويصوغون منهُ الحلى ويصنعون الادوات . واهالي المكسيك والبيرو منهم كانوا يستخرجون الذهب والفضة والنحاس وقال البعض انهم كانوا يصنعون البرنز ايضًا من النحاس والقصدير

وكان اكثير منهم المام بالفلاحة وهم الذين ربوا الذرة الهنديَّة وكانوا يعتمدون

عليها في معيشتهم كما يعتمد عليها الآن جم كبير من بني البشر ومنهم تعلم الاوربيون زراعة البطاطا والتبغ

وبعضهم كانوا يبنون بيوتهم من الواح الخشب او من الحجارة المخوتة وطول بعض بيوتهم الخشبية مئتا قدم فاكثر وعرضة ثلاثون قدماً. وقد ادهشت مبانيهم المحجرة كل الذين شاهدوها باتساعها وكبر حجارتها وبديع نقشها وزخرفتها

وكانوا قد اتصلوا الى استخدام الحيوان لنقل امتعتهم فبعضهم استعمل الكلاب لهذه الغاية وبعضهم استعمل حيواناً كالجمل اسمه اللاما. ولو تأخر اكتشاف اميركا بضعة قرون لاتصل اهلها الى استخدام الجواميس لهذه الغاية

وقد اهتدى بعضهم الى نوع من الكتابة الصورية قبل اكتشاف كولمبس وكانوا يكتبون بها الحوادث . ويظن البعض ان اهالي المكسيك كانوا يستعملون نوعاً من الكتابة يشبه الكتابة بالحروف الهجائية

وكان عندهم نوع من الحكومة المنتظمة ورؤساء يتولون امرهم بالوراثة او بالانتخاب وكثيراً ما كانت القبائل المتجاورة تتعاهد على الهجوم والدفاع . وكان عندهم شرائع منتظمة مناسبة لاحوالهم ومَنْ يخالفها يقاص قصاصاً صارماً وبذلك انتفت من بينهم السرقة وشرور كثيرة مما هو شائع عند غيرهم من الشعوب

اما اديانهم فكانت مختلفة وشعائرها محكمة والهتهم كثيرة وكان لخدمة الدين عندهم مقام رفيع وسطوة عظيمة وكلمة نافذة والارجح ان ارتقاءهم في معتقداتهم الدينية كان اعظم منهُ في غيرها

اما الطب فكان اعتمادهم فيهِ على تأثير الوهم في النفوس لانهم كانوا يعتقدون ان كل الامراض من فعل الارواح الشريرة او من فعل السحر . وكانوا يستعملون بعض الحشائش والعقاقير الطبية ولكنهم لم يكونوا يعتمدون عليها الاَّ كواسطة اضافية للعلاج . وكثيراً ما كان الطبيب نفسهُ يستعمل هذه العقاقير بدل المريض لكي يقوى على اخراج الروح الشرير الذي هو علة المرض في زعمهم . وكانوا يستدلون على فعل العلاج من اسمهِ او من شكلهِ فالزهر المعروف عندهم بعين الغزال كانوا يستعملونهُ غسولاً لوجع العينين . والنبات المتين الجذور يستعملون غلاية جذورهِ لتقوية الشعر والنبات الذي تلصق بزورهُ بالثياب او بجلود الحيوانات يستعملون غلايتهُ لتقوية الذاكرة اي لالصاق المعاني في النفوس

هذه صورة مجملة لحالة هنود اميركا حين اكتشافها . وقد ذهب بعض الذين بحثوا في احوال هؤلاء الهنود من ذلك الحين الى الآن انهم كانوا آخذين في الارتقاء ولو أُمهلوا لبلغوا في ارتقائهم ما بلغته الشعوب الاسيويّة والاوربيّة وذهب غيرهم الى ان هولاء الهنود كانوا قد بلغوا اوج ارتقائهم وغاية ما يمكن استعدادهم الفطري ان يوصلهم اليهِ . وتطرّف غيرهم وقال انهم شعوب منحطة من شعوب اخرى ارقى منها . ولكل فريق ادلّة كثيرة على تأييد مذهبهِ إلاّ ان جمهور الباحثين يميل الآن الى المذهب الاول وعندهم ان عمران هنود اميركا تأخّر عن عمران غيرهم من الشعوب اما لانهم دخلوا ميدان العمران بعدها او لأن احوال بلادهم اقل مناسبة لتقدمهم أو لان استعدادهم الفطري اقل من استعداد غيرهم ولكنّ عمرانهم الذي وُجِدوا فيهِ حين اكتشف الاوربيون اميركا كانت فيهِ كل اصول العمران التام ولو أُمهلوا وقتاً كافياً لارتقى كما ارتقى عمران غيرهم من الشعوب

وحالما اكتشف الاوربيون اميركا اخذوا يتساءلون مَنْ هم سكانها ومن اين اتوا اليها . اما الهنود فيجيبون المسألة الاولى قائلين اننا بشر . وكلّ قبائلهم مجمعة على ذلك وان اختلفت في طرُق التعبير فبعضهم يقول اننا بشر وبعضهم اننا بشر صرف وبعضهم اننا بشر البشر وهلمّ جرًّا . ويجيبون المسالة الثانية على صوَر شتى فبعضهم يقول ان اصلهم من البلاد التي هم فيها وبعضهم ان اصلهم من الجبال او من الآكام . ومنهم قبيلة تدّعي انها تولدت من اكمة وفي هذه الاكمة ثغرة كبيرة فيقولون انها ثغرت من نفسها فجاء الخالق لسيدها فوجد ان جانباً كبيرًا من القبلة قد خرج منها . وبعض قبائلهم يزعم انهم خلقوا من الرماد وبعضهم يقول ان الشمس امهم والثرى ابوهم وبعضهم يقول انهم خلقوا من التراب الاحمر ويقول غيرهم ان الوحوش اقترنت بكوكب سقط من السماء فولدت اسلافهم . ومهما يكن من هذه الاقوال فهي ليست دون اقوال اليونان وبعض الشعوب الاسيويّة

اما كولمبس والذين اقتفوا خطواتهِ في عصرهِ فظنوا انهم بلغوا بلاد الهند من اقصاها شرقًا وحسبوا ان اهالي اميركا هم الهنود بعينهم ولذلك سموهم باسم الهنود وبقي هذا الاسم مطلقًا عليهم الى يومنا هذا . ثم لما عُلِم ان اميركا بلاد جديدة مستقلة تمام الاستقلال عن بلاد الهند جعل الناس يتساءلون عن اصل سكانها فذهب اكثرهم الى انهم هم العشرة الاسباط من اسباط بني اسرائيل الذين اجلوا عن بلادهم على ما في التوراة . وألّف بعضهم كتابًا كبيرًا في هذا الموضوع منذ اكثر من مئة سنة عزّزهُ بكثير من الادلة مما بين بني اسرائيل وهنود اميركا من المشابهة في الشعائر الدينيّة والعوائد والاحكام

واللغة والاحاديث . ولم يزل هذا المذهب شائعاً حتى الآن . وذهب كثيرون مذاهب أخرى متباينة حتى عزي اصل هنود اميركا الى كل شعب من شعوب اوربا واسيا وافريقية كالفينيقيين والقرطاجنيين والسكندناويين والارلنديين والايسلنديين والغرينلنديين واهالي الهند والصين واليابان وملقا واستراليا والتتار ومصر . ولكل مذهب من هذه المذاهب ادلة تؤيده ولكنها ليست كافية لاثباته ونفي ما سواه ومثل من يكتفي بها مثل من استدل على ان اليونان كانوا يحتقرون المرأة ويهينونها اعتمادًا على بضعة ابيات من اشعارهم وغفل عن ابيات اخرى اكثر منها تثبت انهم كانوا يكرمونها ويرفعون مقامها

اما العلماء الراسخون في العلم فحاولوا حل هذه المسألة بتفحص الصفات الطبيعية المقومة لاصناف البشر وهي لون الجلد والشعر والعيون وشكل الشعر والرأس واتساع الجمجمة وبناء اللغة . اما اللون فقد اتضح انهُ ركن ضعيف لا يعتمد عليهِ وحدهُ في فصل اصناف الناس لانهُ قد يختلف كثيرًا في الصنف الواحد بل في الشعب الواحد بل في القبيلة الواحدة بل في العائلة الواحدة بل في الشخص الواحد بحسب اختلاف سنهِ . فاطفال هنود اميركا بيض الالوان مثل اطفال الجنس القوقاسي ويتميز لونهم مع تقدمهم في السن وشعرهم اشقر لا اسود ولون البالغين منهم يختلف ولا يقدر البيض بينهم كما لا يندر السود . وشكل الشعر الظاهر بين كونهِ سبطًا او جعدًا او مفلفلاً سببهُ شكل ساق كل شعرة منهُ فالشعر السبط اسطواني الساق والمفلفل بيضيها او مفرطحها وبين هذين الطرفين درجات كثيرة يتعذر فصلها بعضها عن بعض واتخاذها حكمًا في فصل اصناف الناس

والاستدلال بشكل الرأس واتساع الجمجمة لم يثبت حتى الآن ثبوتًا ينفي كل ريب لان آلات القياس غير وافية بالغرض . والقياس نفسهُ عسر جدًّا . وحتى الآن لم يتفق العلماء على عدد اصناف الناس فبعضهم جعل الناس صنفًا واحدًا وبعضهم صنفين وبعضهم ثلاثة وبعضهم اربعة وبعضهم خمسة وبعضهم ستة وبعضهم سبعة وبعضهم ستة عشر وبعضهم ثلاثة وستين . ونتيجة ذلك كلهِ ان الحكم على صنف الهنود من لونهم وشعرهم وجماجمهم لا يعوّل عليهِ كامر باتٍ

وما يقال في الادلة الطبيعية يقال في الدليل اللغوي لان علم اللغات اسهِ علم اشتقاق اللغات بعضها من بعض ونسبتها بعضها الى بعض حديث النشأة لم يمض عليهِ

حتّى الآن اكثر من خمسين سنة ولذلك لا ينتظَر ان يتكمّل بفصل اصناف الناس بعضها عن بعض من البحث في لغاتها . ولغات هنود اميركا مراتبية اكثر مما يُظن وبعضها يقابَل باللغة اليونانيّة على سموها وانساعها . وفيها كلمات تكفي للتعبير عن كل المطالب والمعاني الّتي يمكن ان تخطر على بال اصحابها . ولا يوجد شيء في اكثر اللغات ارتقاء الاّ ويوجد له جرثومة في لغات هنود اميركا . وتمتاز هذه اللغات في كونها قابلة للارتقاء والانساع الى ما لانهاية له . فكل ما يمكن ان يزاد في اللغات الاوربيّة بتقدم العلوم والفنون يمكن ان يزاد بسهولة في لغات هنود اميركا

ولقرب هذه اللغات من البساطة الفطريّة يمكن تفحصها وتحليلها بسهولة . وقد عني بعض العلماء في تفحص لغات الهنود الّذين كانوا شمالي بلاد المكسيك وقت اكتشافها وردها الى اصولها فوجدوا انه يمكن ردها كلها الى ثمان وخمسين لغة تحتها ثلثمئة لهجة مختلفة . وهذا هو الحد الاخير الذي وصل اليهِ علم اللغات من هذا القبيل اي انهُ ارجع لغات هؤلاء الهنود المختلفة الى ثمانٍ وخمسين لغة مستقلّة . وهو لا يدّعي ان هذا هو الحد الاخير الذي يمكن ان ترجع اليهِ هذه اللغات بل ان هذا هو الحد الاخير الذي امكن ارجاعها اليهِ حتّى سنة ١٨٩٠ ومن يعلم ما يأتي بهِ الغدُ فقد يتسع نطاق علم اللغات في بضع سنين فيتمكن اربابهُ من ارجاع هذه اللغات الى اصل واحد او بضعة اصول ولكنهُ ليس من العلم الحكمُ في ذلك قبل وقتهِ

ههنا ينتهي مجال العلم ويبتدئ مجال الاراء والمذاهب وعند العلماء مذهبان شهيران الاول ان لغات البشر متشابهة وهي كلها من اصل واحد وهذا الاصل قد تفرّع وتنوّع فتولّدت منهُ لغات البشر المختلفة فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعُدت عن الاصل كثيرًا وتغيرت بالزيادة والنقصان والنحت والحذف حتّى بعُدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع وصار يتعذّر ردها بعضها الى بعض لتقد حلقات كثيرة من بينها . والمذهب الثاني انهُ كان للغات البشر اصول مختلفة بحسب عدد طوائفها وانهُ مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج اهلها وتشابههم

وهذان المذهبان على اختلافهما العظيم يدلاّن كلاهما على ان اصل اللغات قديم جدًّا لا يمكن معرفتهُ معرفة علميّة يقينيّة للحكم منهُ على صحة احدهما وفساد الآخر . ولكلٍّ منهما انصار واتباع وادلة كثيرة لنا بيدهِ . وعند الكاتب ان المذهب الثاني اقرب الى الصحة او انهُ اقدر على حل المشكلات من الاول

ويُستدَل من علم آثار البشر (الاركيولوجيا) ان الانسان سكن اميركا من عصور قديمة جدًّا. وكلما توغلنا في القدَم رأينا آثارهُ اكثر خشونة واقل اتقانًا. ولا دليل يدل على انهُ لم يسكن هذه القارة قبل ان تعلم النطق بالكلام كما انهُ لا دليل على ان لغات اميركا مشتقّة من لغات اسيا. ولا على ان البشر لم ينتقلوا من اميركا الى اسيا بدلاً من انتقالهم من اسيا الى اميركا واذا ثبت ان هنود اميركا انتقلوا اليها من اسيا او اوربا او افريقية فيكون انتقالهم منذ زمان متوغّل في القدم حتّى ان اللغات الاصليّة التي كان يتكلم بها اسلافهم لم يبقَ لها اثر ظاهر في لغاتهم الحاليّة

والمذهب الثاني اي تعدد اصول اللغات يستلزم انهُ لم يكن الناس لغة واحدة لما تفرّقوا على وجهِ الارض ولا لغات مشتقة من لغة واحدة. وعند الكاتب ان لغاتهم تولدت بعد تفرقهم. ولا نرى مانعًا علميًّا يمنع ما جاء في التوراة من ان لغات البشر تبلبلت واختلفت بامرهِ تعالى وكان ذلك داعيًا لتفرقهم

وجملة القول ان هنود اميركا قد وُجدوا فيها منذ زمان متوغّل في القدَم وانهُ لا يمكننا حتّى الآن معرفة اصلهم بكل ما لدينا من الأدلة الطبيعيّة واللغويّة

علاج التتانوس والدفتيريا

اكتشاف جديد

ستبقى سنة ١٨٩٠ اشهر السنين في تاريخ صناعة الطب. وفيما نحن نظن انها قد استوفت شهرتها باكتشاف الدكتور كوخ لعلاج التدرُّن اذا بالجرائد الالمانيّة وفيها ان اثنين من الاطباء المشتغلين في معمله اكتشفا طريقة للوقاية من داء التتانوس وداء الدفتيريا وشفائهما. والمظنون انهُ يمكن استعمال هذه الطريقة لعلاج غير هذين الدائين من الادواء المعدية

واغرب ما في هذه الطريقة ان دم من يوقى بها من داء الدفتيريا تصير فيهِ قوة على ابطال فعل السم الذي يتكون من ميكروب هذا الداء. وتصير هذه القوة في مصل الدم ايضًا حتّى يمكن استعمالهُ لعلاج الحيوانات المصابة بالدفتيريا. وما قيل فيها يقال في التتانوس ايضًا

ولسنا نخوض في تاريخ هذا الاكتشاف ومقدماتهِ فانهُ كاكثر المكتشفات العلميّة ناتج